المسلسل المغربي يتصالح مع متلقيه

ظاهرة "وجع التراب" الاستثناء الذي لن يؤكد القاعدة

في أول تجربة تلفزيونية لها في إنتاج المسلسلات، خرجت القناة الثانية منتصرة من جميع الجوانب، سواء من حيث نسبة المشاهدة، أو من حيث المداخيل الإشهارية التي درها المسلسل على مالية القناة، نجاح ما كان ليتحقق، لولا إدراك كاتب نصه للسر الذي بإمكانه شد وجدب انتباه المشاهد، كلمة واحدة يلخص، بها شفيق السحيمي نجاح المسلسل، إنها «سر القلب»

حول المسلسل التلفزيوني «وجع التراب» كل المشاكل المفتعلة التي صاحبت تصويره إلى نجاح، أنست الجميع تلك المشاكل، وتمكنت بواسطته القناة الثانية في أول تجربة تلفزيونية لها، من مصالحة الجمهور مع دراماه، بسبب توافره على مقومات جمالية وفنية، فضلا –وهذا هو سر النجاح– عن الأداء المميز وبدون استثناء لفريق الممثلين، هذا التفاعل والكيمياء أفرز عملا دراميا حقق تجاوبا جماهيرا كبيرا، وأعاد بعث السؤال الدرامي من رماد اعتقاد حكم على الدراما بكونها «بيريمي»، فقد حققت سلسلة «وجع التراب» على امتداد عمر بثها نسب مشاهدة عالية، قدمت درسا وعبرة لأولى الأمر التلفزيونيين، على ألا سبيل أمامهم لسد ثقب الأوزون التلفزيوني الاخذ في الاتساع ، إلا بالاعتماد على مبدإ القرب وسيلة لكسب ود المشاهد وإرجاعه إلي وطنه التلفزي، بدل هجرته الدائمة إلى أرض التلفزيونات الواسعة، مسلسل «وجع التراب» كتب نصه الفنان شفيق السحيمي، بعد اقتباس فكرته العامة عن رواية لإميل زولا «الأرض»، وقام بإخراج تمارين في المائة منه ، قبل أن تتفجر المشاكل إياها، ويتوقف التصوير، لترسل القناة الثانية بعدها المخرج نورالدين القاسمي لإتمام ما تبقى من إخراج المسلسل بالاشتراك مع شفيق السحيمي، العمل كان مناسبة اكتشفت فيها وجوه فنية جديدة ، عرف كيف يديرها السحيمي، لتبصم عن حضورها بشكل لافت جدا، وأبانت خلال العمل عن قدرات فنية وتمثيلية عالية، وتمكنت بوسطتها من التسلل إلى قلوب مشاهديها، ونخص بالذكر ابن الدار البيضاء أمين الناجي (المهيدي) خريج مدرسة شفيق السحيمي، الذي تبناه واشتغل معه في كثير من الأعمال، الفنانة الشابة جميلة الهوني (تايكة) المنحدرة من مدينة النخيل مراكش، وخريجة المعهد العالي للفن المسرحي والتنشيط الثقافي، وتبقى موهبة المسلسل وجوهرته الممثلة الشابة ابنة فاس فاطمة غازي التي برعت في تشخيص دور الخاعة أمام فنان من الطراز الرفيع محمد البسطاوي، وتمكنت من الوقوف أمامه الند للند، وكأنها راكمت تجربة طويلة في التمثيل، دون أن ننسى طبعا الحضور الوارف لشفيق السحيمي من خلال شخصية سي أحمد التي خلقت عالما خاصا بها داخل المسلسل، جعلت العديد من المشاهدين يتعاطفون معها، بل ويتابعون المسلسل من أجلها، وهذا ما أكدته اراء استقيناها من بعض المواطنين، أشادت بشخصية سي أحمد، وشددت على أنها تتابع المسلسل من أجلها، ومن أجل معرفة نهايتها ..

مماد محمد: الإنتاج التلفزي مغامرة مالية وفكرية

يؤكد محمد مماد مديرالبرمجة بالقناة الثانية، أن نجاح «وجع التراب»، يعود بالأساس إلى توجهه إلى الجمهور المغربي ومعالجته لقضايا تهم هذا الجمهور، فتحول العمل إلى مراة وجد فيها المشاهد ذاته، رغم تركيزه على قضايا لها علاقة بالبادية، مضيفا أن المدينة لم تستطع فصل المغربي عن جذوره القروية، حيث يظل محافظا ومتمسكا بعادات وتقاليد ذات صلة بالمنطقة البدوية المنحدر منها، فضلا عن ذلك، فإن القيم التي عالجها المسلسل قيم مغربية محضة ، وهو ما يترجم في نظره تجاوب الجمهور مع المسلسل، وبخصوص ما إذا كان نجاح

وجع التراب، سيدفع القناة الثانية للتفكير في إعادة خطتها الإنتاجية، بالتركيز على الإنتاجات الدرامية بدل تلك السيتكومات الماسخة يتفق محمد مماد مع هذا الرأي، معتبرا إياه اختيار من بين اختيارات أخرى، يمكن دراستها في المستقبل، لما يتيحه من إمكانات على مستوى الوقت، تجعل المخرج وكاتب السيناريو ينضج نصه على نار خفيفة، دون أن يعني ذلك بالضرورة في نظره أن نجاح هذا المسلسل معناه إمكانية نجاح مسلسل اخر، فلا شيء مضمون في هذا الإطار، ولكن الرهان على الدراما التلفزية يبقى اختيارا، يمكن أن نبني عليها البرمجة في رمضان، مضيفا أن مشكل السيتكوم له علاقة بضعف التجربة وعدم المراكمة ما يكفي لنصل إلى الجودة السائدة في بعض الدول الرائدة. نجاح وجع التراب، دفع القناة الثانية إلى التعاقد مع شفيق السحيمي لإخراج مسلسل «صيف بن نعمان»، تعاقد يبرره مماد بالمثل الفرنسي، الذي يقول «لا تغير فريقا ينتصر»، ومع ذلك فالنجاح ليس مضمون بالضرورة في التجربة الجديدة، والدليل أنك قد تجد مخرجا أو ممثلا سواء بالمغرب أو خارجه، أنتج ثلاثين فيلما، ولكنه غير معروف إلا بفيلمين فقط، فالإنتاج السمعي البصري، مغامرة مالية فكرية، وكل ما يمكن أن تقوم به القناة أن توفر للمخرج كل شروط النجاح، ويبقى للجمهور القول في الفصل في نهاية المطاف.

سالم اكويندي: قوة السيناريو والمسرحانية سر نجاح المسلسل

يرد سالم اكويندي النجاح الجماهيري لمسلسل «وجع التراب»، إلى بساطة الفكرة والشكل الطبيعي الذي تقدم به المسلسل في وسط قروي، وارتباطه بمشكل يعيشه كل المغاربة، هومسألة الأرض والتشبث بها، وملكيتها، كما أن طبيعة الممثلين الذي اشتغلوا في المسلسل هم ممثلو المسرح بالدرجة الأولى أكثر منهم ممثلي التلفزيون أو السينما،وهوما جعلهم صادقين في تشخيصهم، وفي نقل كل الأفكار التي قدمها المسلسل، ومن جانب اخر، يؤكد اكويندي، على عدم وجود أي علاقة بين رواية «الأرض لإميل زولا»، ونص شفيق السحيمي، بل إن هذا الأخير قام بإعادة كتابة نص استوحت فكرته العامة من الرواية الأصلية، لأنها بعيدة عن أجواء إميل زولا، والأجواء التي عاشها المجتمعات الأوربية خاصة فرنسا في فترة الكاتب الذي كان فيه الإقطاع المرتكز على الأرض عاملا أساسيا في علاقات الإنتاج، وقد حاول إميل زولا فضح هذه العلاقات السائدة في المجتمع الطبقي، بالنسبة لمسلسل «وجع التراب»،استطاع أن يعيد لعب هذا الدور خاصة تشبث الإنسان بالأرض، وبناء اقتصاد وطني على الماء، الذي لازال عنصرا حاسما في هذا المجال، لذلك يأتي هذا التعاطف، دون أن ننسى معطى فني آخر كان حاضرا بقوة على مدار حلقات المسلسل، وهو الاندماج في الشخصيات فكل الممثلين المشاركين في المسلسل الناجي البسطاوي وشفيق السحيمي كانوا يؤدون أدوار مسرحية، أكثر منها دراما تلفزيونية أو سينمائية. فالأدوار في مسلسل «وجع التراب» كانت متقمصة فعلا، والشخصيات مرسومة، وهي شخصيات بدوية طبيعية قريبة من معيشنا اليومي، بحيث يمكن لكل واحد أن يسقط عليها ذاته، ويمكن لكل واحد أن يتعاطف معها، هذا ما يسمى في.نظام التراجيديا بالمسرح الاندماج في الشخصية هذا الاندماج أفضى في النهاية إلى تمثل شخصيات المسلسل، وإسقاطها من طرف الناس الذين يعيشونها، خاصة عندما يتعلق الأمر بمثل هذا النوع من المسلسلات، فقد عشناه مع الأفلام الهندية، الذي توجد فيها هذه الميلودراما، الاختلاط ما بين المأساة والكوميديا، ما ينطبق على الحياة التي نعيشها ، فليس لدينا حزنا ولكن نعيش الفرح، ولكنه فرح يتم النظر إليه دائما بنوع من التوثرات والانفعالات وبحالات شخصية، هو ما يجعلنا نتعاطف مع الشخصيات بشكل قوي، لذلك فالدراما هنا يقول اكويندي محبوكة بمفهومها التراجيدي المسرحي، أكثر ما هي محبوكة بشكلها كسيناريو، لأن ما يتحكم في المشاهد هنا ليس المكان كما في السينما، بل يتحكم فيها الحدث أو الشخصيات، حتى تقطيع المسلسل كان خاضعا لهذا الجانب، من هذا المنطلق يعتبر اكويندي المسلسل دراما مسرحية متلفزة، وحتى الإخراج خضع للتقطيع الذي سار فيه منطق السيناريو، أكثر من التقطيع الذي يمكن أن يعيده المخرج في تقطيعه وتوضيبه، يمكن أن نقول إن الشخصية والكتابة القوية لشفيق هي التي كانت حاضرة أكثر ما كان إخراجه

ومن جانب اخر، يرى سالم اكويندي أن الاعتماد على الاقتباس يدل على أننا لا نملك ذلك القالب أو صيغ درامية التي نصيغ منها أحداثنا وأعمالنا وقضايانا وهمومنا، في حين أن هذا الاختيار يعكس نوعا من التقصير بالنسبة للمشتغلين في هذا الحقل، ويأخذون قوالب جاهزة، ليفرغوا فيها مواضيع بعيدة عنها، مضيفا أن هذا الأمر يثبت عدم وجود نوع من البحث، بينما هذ العمق موجود لدينا في مجموعة من الأشكال الدرامية المغربية التي نعيشها في الحكايات في القصص، ولكن ليس هناك اجتهاد في البحث عليها، وهو ما يفسر في نظر اكويندي وجود فقر في الخيال ،بحيث أصبح لدينا تشويش بالفضائيات والتأثر بالاخرين، كمثال على ذلك الدراما السورية نجحت برجوعها إلى التاريخ، والحكي، وبالنسبة لثقافتنا كلها سماعية مبنية على الرواية والحكي، فأصل الدراما بالخصوص هو الحكاية، إذا غابت يختفي عنصر أساسي، الذي بإمكانه التفاعل مع باقي العناصر الأخرى التي تخلق الفرجة . ويرجع سالم اكويندي تخلف الدراما التلفزية إلى غياب كاتب مبدع له خيال خصب، يمكن أن ينتج ويبدع لنا هذه الكتابة الدرامية، ويجب على هذا الكاتب أن يكون مسلحا بثقافة عامة ، ملما بأحوال مجتمعه، بتاريخه، بمعرفته، وأن تكون له رؤية سياسية واضحة ، فإذا أخذنا أسامة أنور عكاشة، يركز على تاريخ مصر، أنزور يقدم جانبا من التاريخ الإسلامي، نفس الأمر بالنسبة لمصطفى العقاد، لأن هؤلاء حسب اكويندي يجرون وراءهم ثقافة وتكوينا وتشبعا بالموروث والمتخيل الشعبي الوطني... لحد الساعة لم نعثر على هذا الكاتب، ولذلك أعتبر كل هذه الحالات مجرد تمرينات بما فيه عمل شفيق السحيمي، الذي يملك خيالا ولغة ممتازة وله ثقافة بدوية متشبع بها، وله قدرة وتقنية هائلة في كتابة الحوار، وفي صياغته،